الفصل الأول

بيت تعلّم

الدلتا

يكتظ معظم سكان مصر البالغ تعدادهم 65 مليوناً في الأراضي الزراعية الممتدة على طول نهر النيل والتي تحاصرها الصحراء من كل جانب. وقد أخصبت فيضانات النيل على مدى السنين هذه السافانا. واستوطن الإنسان هذه المنطقة منذ آلاف السنين بما يتجاوز حدود الذاكرة البشرية. وينقسم النهر شمال القاهرة عاصمة مصر إلى فرعين رئيسيين هما: الرشيد ودمياط. وحولهما عدد لا يحصى من الجداول والترع التي تتشابك كنسيج العنكبوت متصلة ببعضها بعضا بين القناتين الكبيرتين. وتمتد دلتا النيل مسافة 100 ميل من شاطئ البحر، ويغذي النهر بطريقة عجيبة هذه الدلتا الخصبة. وتضم ضفاف النيل هذه واحدة من أعظم وأقدم الحضارات التي شهدتها الكرة الأرضية في زمن لم يكن فيه الغرب القوي الآن حلماً يخطر على بال أحد. وهو عصر وصفه أحد المتخصصين بالعالم الإسلامي " كان فيه سكان شمال أوروبا ما زالوا يجلسون على الشجر"[1]. ولا تزال خصوبة الدلتا، وكما كانت عبر الزمان، تشكل منبع الثروة والموهبة التي أنتجتها الحضارة المصرية. فالرؤساء والشعراء والثوار كلهم تشكلوا في قرى الدلتا.

وتبقى الدلتا حتى يومنا الحاضر سلة الخبز المصرية. أسواقها وافرة، شوارعها مزدحمة ومكتظة بحافلات النقل والعربات التي تجرها الحمير. أما الجرارات فقليلة، وما زالت أعمال الزراعة تتم بالطريقة ذاتها التي استخدمت

منذ آلاف السنين، اليد البشرية والثور. وتكتظ الدلتا بالسكان. وترتدي النساء الخمار أو الطرحة، ويلبس الرجال رداءً قطنياً يسمى الجلابية، ويعلق بأسفلها الطين بفعل العمل الشاق في الحقل والأرض المبتلة. ولا تكاد تتوارى قرية عن الأنظار حتى تلوح لك معالم قرية أخرى. وتمتد الحقول الصغيرة وغير المتناسقة على طول السهول الواسعة بين البلدات والقرى. وتنتصب لوحات الدعاية الكبيرة لآخر موديلات هواتف نوكيا الجوالة فوق ترع الري التي تتجمع تحتها القمامة. وتغتسل النساء ويغسلن أواني المنزل على الضفاف المتسخة للنهر.

ولد محمد محمد الأمير عواد السيد عطا هنا عام 1968 في أقصى مقاطعات النيل الشمالية كفر الشيخ. وقدم أبوه محمد الأمير عواد السيد عطا من قرية صغيرة. أما أمه بثينة محمد مصطفى شريفي فهي من ضواحي عاصمة إقليم كفر الشيخ، واسمها أيضاً كفر الشيخ. وكما هي عادة الريف المصري والتي ما زالت دارجة حتى الآن، فإن زواج محمد وبثينة تم بتنسيق بين أسرتيهما. وفي وقت الزواج، كان محمد الأمير – كما كان يعرف في ذلك الوقت – محامياً معروفاً في البلدة، بعد أن حصل على شهادتين في الشريعة والقانون. وكانت بثينة في الرابعة عشرة من العمر، ولأنها كانت من أسرة غنية تعمل في الزراعة والتجارة، فقد كان هذا الزواج يمثل بالنسبة لمحمد الطموح فرصة سانحة. رزق الزوجان بابنتين هما عزّة ومنى، ثم رزقا ابناً سمي على اسم أبيه، محمد. ولم يكن لمحمد الأمير كثير من الأقارب، كما أنه لم يحتفظ بعلاقة قريبة مع أسرة بثينة، وكان ذلك بحسب رغبة محمد كما تقول أسرة بثينة. وكان والد ووالدة بثينة ينظرون إلى صهرهم محمد على أنه رجل غريب، عبوس، متشدد، ومنعزل عن الناس. وكان عنيداً لا يسمح لأحد أن يخالفه الرأي.

لا توفر حياة الريف في الوطن العربي أي قدر من الخصوصية الشخصية. وتفرض طبيعة الجغرافيا والحياة المكتظة في مصر أن تكون الحياة جماعية ومشتركة. حيث يتكدس السكان فوق بعضهم بعضاً. ومقاومة

ثقل القرون التي مضت في تشكيل هذا النمط من الحياة يتطلب جهداً كبيراً. وكان محمد الأمير – المشهور بعناده – مستعداً لبذل ذلك الجهد.

"كان الأب وحيداً، لم يكن لديه أي أخوة، وربما كان له أخت ولكننا لم نكن نعرفها" هذا ما تقوله حمدية فاتح، أخت بثينة، وتضيف: "هنا، الأسر جميعها متقاربة، ولكن رغم ذلك كان الأب منعزلاً"[2].

وتعتبر أسرة فاتح من الأسر المشهورة في كفر الشيخ. فهي أسرة تملك أراض زراعية، ومتجراً لبيع قطع السيارات، وعمارة تجارية مكونة من ستة طوابق. وتسكن الأسرة في منزل متواضع يقع في شارع مبلط كثير الغبار. وللمنزل مدخل ودرج ضيق وجدران مطلية بالشيد الأبيض. وفي الداخل مفروش بسجاد عادي، وفيه أثاث مرصوص، ومسجل ستيريو من نوع باناسونك، وتلفاز حجم 19 بوصة من نوع توشيبا. والمنزل غير مكيف، إلا أن بوابة الشرفة تبقى مفتوحة لتصريف حرارة المساء.

وتغطي فاتح رأسها بالطرحة، وهذا تمشياً مع التقاليد والعادات أكثر منه تديناً عن عقيدة بحسب قولها. إذ لم تكن أسرتها ولا أسرة الأمير من الأسر المتدينة. فقد كانوا جزءاً من الجيل اللاديني الذي نشأ في عهد جمال عبدالناصر، عندما لم يكن مستقبل البلاد يسير باتجاه الماضي بالدرجة التي يسير عليها اليوم. لقد كانوا من الجيل الذي كان يؤمل منه أن يصنع مصر من جديد ويستعيد أمجادها الماضية. وتضيف فاتح إننا أناس متعلمون، صحيح أننا من الريف، ولكننا لسنا فلاحين. درست فاتح الهندسة الزراعية في الجامعة، ودرس زوجها الهندسة الأليكترونية.

وكان والد محمد عطا الأمير هو الآخر طموحاً ومركّزاً على نحو استثنائي. وحقق عمله في المحاماة نجاحاً في كفر الشيخ، ولكنه لم يقتنع بذلك، "فانتقل إلى القاهرة" كما تقول فاتح "سعياً وراء الشهرة".

القاهرة

تستيقظ القاهرة من سباتها ببطء في الصباح. ويبزغ الفجر فيها على شوارع خالية من الحركة. ولا تتحرك أولى طبقات الغبار إلا بعد ساعات من شروق الشمس. وليس مستغرباً أن تجد محلات لم تفتح أبوابها حتى وقت الظهيرة. ويرى سكان القاهرة في ذلك دليلاً على تعقيد حياة المدينة. ولكن الحقيقة أن المدينة لم تبتعد كثيراً عن حياة الريف. وتعد القاهرة اليوم تجمعاً قروياً أكثر من غيرها من المدن الكبيرة. وتتلألأ بضع قرى في حلقة حول مركز المدينة؛ وهذه القرى مملوءة بتجار المجوهرات والأزياء وسيارات المرسيدس. وهي في اتصال مستمر بالعالم الخارجي بما يتجاوز الصحراء المحيطة. وفي هذا الجزء من القاهرة يتم عرض الأزياء في الحدائق الخضراء المشجرة للسفارات الأوروبية. وتقدم البارات المشبعة بالدخان مشروب الفودكا الروسية المبرد، ويمكنك تناول وجبة الغداء في النوادي الاجتماعية ذات المائة عام. المنازل فيها محمية بالبوابات الحديدية والحراس المسلحين بالبنادق والرشاشات الأوتوماتيكية. وهناك طبقة من المجتمع المحلي تعيش حصرا وسط هذه المعارض والمتاجر والنوادي والمقاهي. إلا أن معظم سكان القاهرة لا يعرفون أن مثل هذه الأماكن موجودة حولهم.

تعيش الغالبية العظمى من سكان القاهرة حياتها في تلك الظروف المجهولة، مقيدين إلى فقرهم، وماضيهم، وربهم الموجود في كل مكان - وكما في باقي أرجاء الأرض العربية - يعلن عن وجوده من خلال مكبرات الصوت الصغيرة خمس مرات في اليوم في نداء إلى المؤمنين وغير المؤمنين إلى الصلاة. وتتعالى صيحات النداء للصلاة من مكبرات الصوت الرخيصة لتتردد في أزقة المدينة القديمة وتصطدم بجدران مغطاة بسخام وأوساخ تراكمت على مدى ألف سنة. وهناك القليل من الحرس في هذه الأحياء الفقيرة والتجمعات السكنية المكتظة، وخصوصية الإنسان مكفولة فقط بالالتزام المفترض بين

الجيران بعدم النظر إلى ما تفعل أو تقول أو ربما تفكر، أو في أي حال، التظاهر بعدم رؤية شيء، لأن عدم ملاحظة ما يقع عليه نظرك في المدينة هو من المستحيل.

إن الفجوة بين هذين العالمين - بين القاهرة الحديثة اللادينية الطموحة، وبين الجزء الأكبر المتبقي من المدينة المتمثل بالأحياء الفقيرة المكتظة بالسكان من المدينة الكبيرة - تمتد لتشكل شرخاً هو من العمق بمكان بحيث يصعب على الناس العاديين أن يشاهدوه فضلاً عن أن يتمكنوا من اجتيازه. وفي جزيرة تقع بين ثقافتين - الأولى قديمة ومتشبعة بالأساطير والتقاليد، والأخرى مؤنقة وبراقة، تقبع الطبقة الوسطى الصغيرة والمكافحة. وفي هذه الجزيرة من مجتمع القاهرة استقرت عائلة محمد الأمير عندما قدمت من كفر الشيخ.

سكنت الأسرة في شارع الدملشة في حي عابدين الذي كان من أرقى أحياء القاهرة قديماً ولكنه فقد أمجاده القديمة وتحول إلى حي شعبي بجانب المراكز المالية والحكومية في المدينة. وفي الوقت الذي وصلت فيه أسرة الأمير في السبعينيات، كانت ثروة المدينة قد بدأت بالتحول إلى المقاطعات الجديدة غربي نهر النيل في حي المهندسين والدكيّ، وجنوباً شرقي الضواحي الأحدث في المعادي وهولوبوليس. وتُركت الأحياء القديمة مثل عابدين تترنح في مواقعها. وتعود البنايات السكنية المشيدة من الحجارة إلى بقايا عهد الاستعمار الإنجليزي الذي انتهى عام 1952. مداخل هذه البنايات مبلطة بالرخام وأحجار الجير، وتتكوم في زواياها قشور البلاط الذي تكسر بمرور الزمن.

كان محمد في ربيعه العاشر عندما استقرت الأسرة هنا. واستغل والده تراجع أسعار العقارات في المدينة فاستأجر شقتين كبيرتين تحتلان طابقاً كاملاً في البناية، مما وفر لكل واحد من الأولاد غرفة خاصة به. وهو أمر

نادراً ما يحدث في تلك المدينة المكتظة بالسكان. هذه الشقق السكنية القديمة معتمة من الداخل، وتبقى النوافذ مغطاة بالستائر لكي تحجب أشعة الشمس الحارقة. فيما بعد اشترى والد محمد بيتاً صغيراً شمال البلاد على ساحل البحر الأبيض المتوسط للراحة والاستجمام وقضاء الإجازات فيه، إلا أن الأسرة عاشت معظم وقتها في المدينة. كانت بثينة، أم الأولاد، تقوم بأعمال المنزل من طبخ وتنظيف بنفسها. ويملك الأب سيارة قديمة من نوع أوبل، ثم استبدلها فيما بعد بسيارة متواضعة أحدث من نوع فيات. ولما جاء أهل بثينة لزيارة ابنتهم في عابدين وجدوا أن الأب قد غرس في أبنائه الطموح. وتقول فاتح في هذا الخصوص "لقد احترم الأولاد رغبة أبيهم وإصراره على التعليم، فكان المنزل بيتاً للدراسة والتعلم، لا لعب، لا ترفيه، فقط الدراسة ولا شيء آخر".

لم يكن مسموحاً للأولاد باللعب خارج المنزل، وكانت غرفة محمد الصغير تقع في الجهة الخلفية للبناية وتشرف على سطوح البنايات المجاورة وأكوام الأسلاك والنوافذ. ويقول الجيران بأن محمد كان يستخدم نافذة غرفته للتحدث إلى أبناء الجيران، وكان ذلك بحكم وقت اللعب بالنسبة له. وفي مناسبات ضئيلة كان يسمح له بمشاهدة بعض برامج التلفاز، كما يقول ابن خالته عصام عمر رشاد. وكان محمد يغادر الغرفة في الأوقات التي يعرض فيها لقطات من الرقص الشرقي الذي يشتهر به التلفزيون المصري.

ويقول محمد كامل خميس، صاحب ورشة لتصليح السيارات في الطابق الأرضي للبناية القديمة التي سكن فيها محمد: "كان أصدقاء محمد يجلسون هناك في تلك الزاوية، يأكلون الفستق الحلبي ويلفظون القشور على الأرض، ولكن لم يكن محمد معهم، لم يكن يجالس أصدقاءه خارج المنزل. فالقيود المفروضة عليه كانت صارمة" ويضيف خميس، "لقد جاؤوا من القرية، ومعهم تقاليدهم، وكانوا يعيشون حياة أسرية مغلقة. كانوا على درجة عالية من الأدب والخلق، إلا أن اتصالهم بالآخرين كان محدوداً". وقال أحد الجيران: لقد قام

الأهل بتوقيت مدة المسير من المدرسة التي تبعد 100 متر عن البيت، وإذا تأخر الأولاد عن الدقائق المعدودة التي يستغرقها السير من المدرسة، فإن حساباً عسيراً سينتظرهم. وقال جار آخر بأنه سمع الأب يصرخ على أبنائه ذات مرة ولم يكن أحد من الأبناء يرفع صوته على أبيه". وكانت بثينة تستخدم عربة تجرها بيدها عندما تذهب إلى السوق، وهو ما كان مثار تندر واستهجان الجيران الذين رأوا في ذلك تظاهراً منها بالأفضلية والفوقية على البقية. ولكن عائلة الأمير، بالطبع، لم تلق بالاً لما يقوله الجيران، فقد كانوا واثقين من أنفسهم، وتابعت الأسرة سيرها في وجهتها الخاصة. كان الأب رجلاً متيناً فظاً ومن النوع الذي يعطي محاضرة للإجابة عن سؤال بسيط. ولا يقدم الأب أي اعتذار عن عدم تواصله الاجتماعي بالآخرين، وكان يقول: "إننا أناس نحب العزلة، ولا نخالط الآخرين كثيراً، وكلنا ناجحون".

يعد عابدين من أكثر الأحياء السكنية ازدحاماً بالسكان في أكثر المدن المكتظة بالسكان على وجه الأرض. وتطفح الحياة فيه إلى الخارج. وتصبح الشوارع مكاناً للترفيه وممارسة الرياضة والعمل. وعندما يأتي الزوار، توضع الكراسي المطوية والمنضدة القصيرة في الخارج، حيث يقدم لهم الشاي. ولا تبعد ورشة محمد خميس لتصليح السيارات سوى ذراع واحد من طاولة الشاي. وهذا المحل هو بحجم خزانة الحائط. ويقوم خميس بأداء عمله في منتصف الشارع. وفي أسفل الشارع وبمحاذاة الرصيف، هناك دكان لتجليس ودهان السيارات ولا يوجد في داخلها أي شيء. ويقف رجل نحيل وقد غطى الدهان يديه حتى يظن الرائي أنه يلبس قفازات مطاطية سوداء، يجلّس غطاء محرك مصدوم لسيارة روسية قديمة من نوع لادا. فيما تمر عربة يجرها حمار محملة بالتمر. ويدفع بائع البطاطس عربته. وبين الفترة التي سكب فيها الشاي وأضيف عليه السكّر، مر شاحذ السكاكين. وترددت أصداء النداءات

الصاخبة لبائع السكاكين، وبائع التمر، وبائع البطاطس، بين جدران أزقة الحي متزامنة مع صدى صوت مطرقة مجلّس السيارات بين البنايات.

يصعب على المرء أن يبقى منعزلاً عن الناس هنا. وربما أصعب من الدلتا. وقد تساءلت عمّا إذا سبق لأسرة محمد أن سجلت استثناءً وحيداً على قيود العزلة هذه، كما لو تشاركت مع الجيران مثلاً، في وجبة الإفطار الجماعي في شهر رمضان – وهو الشهر الذي يصوم فيه المسلمون عن الطعام والشراب في النهار بينما يحتفلون ويتزاورون في المساء. رد خميس قائلاً: لا، لقد كان الأب متشدداً جداً ولم يسمح بأي استثناءات، لقد كانت الأسرة بحسب تعبير خميس "مجموعة من الحلقات المتماسكة مع بعضها، لم يزوروا أحداً ولم يزرهم أحد". وتوقف خميس عن الكلام برهة من الزمن وهو يحرك يده لطرد الذبابة التي كانت تحوم حول فنجان السكر، ونظر إلى الشقة أعلاه قائلاً: "لا، لم يستطع الذباب أن يدخل ذلك البيت،... ولا حتى الذباب".

الجامعة

كان أبناء الأمير طلبة متميزين. التحقت البنات عزة ومنى بكليات العلوم في جامعة القاهرة إحدى أرقى المؤسسات التعليمية في الشرق الأوسط. ومن هناك واصلتا الارتقاء: فأصبحت عزة دكتورة في القلب، وأصبحت منى أستاذة في علم الحيوان. وجامعة القاهرة التي تقع في منطقة الجيزة بين المدينة والصحراء هي صرح تعليمي ضخم يستوعب أكثر من 155 ألف طالب، وفيها ما يربو على سبعة آلاف مدرس. ويمتد الحرم الجامعي على ضفتي النيل، إلى جانب جزيرة في الوسط. وقد يلجأ بعض الطلاب إلى التنقل بالسيارة بين الدرس والآخر لبعد المسافة بينهما. وتقوم الجامعة بتحديد القبول فيها بناءً على امتحان شامل. ويستغرق إكمال الدراسة خمس سنوات؛ السنة الأولى تحضيرية، يتم توجيه الطلاب إلى الأقسام الرئيسية في التعليم. فإذا كنت

ترغب بدراسة الطب مثلاً إلا أنك لم تحصل على المعدل الكافي في السنة الأولى، فقد تجد نفسك – وبدون أي استشارة أو موافقة – قد سجلت في قسم الفنون الجميلة.

تتبّع محمد الصغير خطى أختيه في المدرسة والجامعة، مدفوعاً في ذلك بإنجازاتهما وإصرار أبيه. وتقوم الجامعة في السنة الأولى بتوزيع الطلاب في الشعب الدراسية بحسب الترتيب الأبجدي للأسماء. يقول محمد مختار الرافعي: "وجدته واقفاً هناك، أمام قائمة الأسماء ليتعرف على برنامجه الدراسي...فتقدمت إليه وقلت له – مرحباً، أنا اسمي محمد –، وكذلك كان اسمه. ونظرنا معاً إلى قائمة الأسماء. وكان هناك ثلاث شعب لطلاب أسماؤهم محمد. ويا للهول... فكنا نستخدم أسماء آبائنا لتمييز بعضنا عن بعض. فكان اسمي رافعي، وكان اسمه دائماً أمير".

أصبح الاثنان أصدقاء منذ تلك اللحظة، وتميزا في السنة الأولى عام 1985، وتم اختيارهما في كلية الهندسة التي هي أكثر أقسام الجامعة هيبة واعتباراً. ويصعب على المرء أن يؤكد على مدى الاحترام الذي يحظى به المهندسون في معظم مناطق الشرق الأوسط، حيث يستخدم الناس لقب "المهندس" كما يستخدم الغربيون لقب "دكتور"، ويصبح اللقب جزءاً من اسم الشخص. وكلية الهندسة ضخمة جداً تضم ما يقارب الألف مدرس. وهذا الحجم يعني منافسة حادة بين الطلاب على اهتمام الأساتذة. وقلما يولي الأساتذة اهتماماً بالطلبة فيما عدا ما يحظى به قليل من الطلبة المتميزين. ومن ضمن كلية الهندسة، يتم اختيار أفضل الطلبة لقسم الهندسة المعمارية، وتم اختيار كل من محمد الأمير ومحمد الرفاعي في هذا القسم، بصرف النظر عما إذا كانا يرغبان في ذلك أم لا. وبعد أن حاز شرف الدخول في كلية الهندسة المرموقة لأول مرة في حياته، إلا أن محمد الأمير لم يكن من المتميزين في ذلك الحقل، فالعمارة تفوق أي حقل إبداعي آخر بكونها خليطاً

يجمع بين الجانب التطبيقي العملي – أي نوع من الزجاج تستخدم لجلب الضوء وحجب الحرارة؟ – والجانب الفني – ما هي المفردات التي يتحدث بها المنزل؟. وكان الأمير يتجنب المواضيع التحليلية، إلا أن منهاج العمارة في ذلك الوقت كان موجهاً نحو التصميم والجوانب الإبداعية من التخصص.

ويستذكر الرافعي تلك السنوات فيقول: "كان محمد ذكياً وبارعاً في الرياضيات والمنشآت المادية. وأقل مهارة في التصميم والجوانب الفنية" ويضيف، " وكان واحداً من الطلبة الأوائل في الثانوية، وحصل على معدل مرتفع في السنة التحضيرية. في وقتنا، كان التركيز على التصميم، ويمكن القول بأنه لم يستطع أن يتكيف مع ما هو مطلوب منه. وفي السنة الثالثة، عندما كنا ندرس التربة، تخطيط الشوارع، والحديد، وهي الأشياء الثابتة، كان يبدع ... ويمكنك أن تقول عنه بأنه مهندس أكثر منه مصمم معماري".

وتذكر إحدى زميلاته في الدراسة أن محمد كان يغضب ويتذمر عندما لا تأتي الأمور بحسب هواه. وتقول: "كان طفلاً، ...كان يشبه الطفل لدرجة كبيرة، وفي إحدى المناسبات، حدث شيء ما ولم يحصل على الدرجة التي كان يرغب في الحصول عليها، فبدت على وجهه علامات انكسار النفس، فقال له أحد الحضور، – إنك تتصرف كالطفل – فغضب محمد منه غضباً شديداً، الأمر الذي يؤكد ما وصفه به زميله. لقد كان حقاً طفلاً. مدللاً".

وبشكل عام، فإن محمداً – وبحسب ما يتذكره زملاؤه – كان شخصاً طبيعياً. ويقول وليد خيري، أحد زملائه في الدراسة "كان محمد معنا، يشاركنا أوقاتنا السعيدة. ويستمتع بوقته معنا. كان يقول النكت، ويضحك، كان واحداً منا".

هذا الهدوء الواضح، الذي عاشه محمد الأمير خلال طفولته وفي الجامعة، كان على النقيض تماماً من الاضطراب والبلبلة التي عاشتها مصر في ذلك الوقت[3]. كان هو وزملاؤه طلبة أذكياء جادين ومتحمسين – كبقية

الشباب المعماريين المثاليين – حول مستقبلهم المهني، وحول فكرة بناء عالم جديد. وفي الوقت نفسه، كان هناك آلاف من الشباب المصري يفكرون بجد بتغيير العالم بأساليب أقل اعتباراً.

تعتبر القاهرة جنة المتآمر. والمدينة تزخر دائماً بنقص مزمن في فرص العمل وفيها عدد كبير من المقاهي حيث تجد الشباب العاطل عن العمل مع أجيال أخرى مثلهم، يضيعون نهارهم بشرب القهوة التركية الحلوة، والأرجيلة، والكليوبترا المفلترة، مالئين الشوارع المتسخة بالحديث وسديم رقيق من الدخان. ولكن ليس كل ذلك الحديث ثرثرة فارغة.

في أعقاب استقلالها عن بريطانيا عام 1952، شهدت مصر حقبة من التفاؤل والطموح. ولم يقف طموح جمال عبدالناصر، الضابط الشاب الذي استولى على الحكم في البلاد، يقف عند تحرير البلاد من ربقة الاستعمار وحسب، بل أراد أن يحرر البلاد من حالة التردي الاقتصادي والثقافي التي رزحت تحتها مصر وبقية العالم العربي على مدى قرون من الزمان. فبذل جهوداً حثيثة في سبيل تحديث البلاد وإنعاش الاقتصاد، وبادر بمهمة طويلة الأمد لانتشال ملايين الفلاحين من حالة الفقر. كما ساهم الزعيم المصري في تأسيس حركة عدم الانحياز، وهو تحالف بين دول العالم الثالث التي أعلنت استقلالها عن صراع الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي. وعمل على رفع مكانة مصر على المستوى العالمي. واستطاع مناورة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي مقتنصاً كل فرصة لكسب أي مساعدة أو عطية يمكنه الحصول عليها من أي من الدولتين العظميين. وأعاد عبدالناصر تأسيس القاهرة كعاصمة ثقافية للعالم العربي. ورفع آمال التقدم السياسي في كافة الدول العربية عن طريق دعمه غير المحدود للقومية العربية. كل شيء بدا ممكناً في تلك الحقبة، وربما أشياء أخرى كثيرة.

وفي مايو/ أيار من عام 1967، تقدمت جيوش مصر، والأردن، وسوريا نحو إسرائيل. وأعلن جمال عبدالناصر وزعماء آخرون أن الوقت حد حان لإعلان الحرب من أجل القضاء على الدولة اليهودية. وجاءت الحرب، ولكن بنتائج مختلفة تماماً. وفي أقل من أسبوع، دحر الجيش الإسرائيلي القوات السورية وأخرجها من مرتفعات الجولان، وأخرج القوات الأردنية من الضفة الغربية، والمصريين من صحراء سيناء، وأخضعت هذه المناطق كلها للاحتلال العسكري. كانت تلك الهزيمة كارثة لا يمكن تعويضها بالنسبة للعرب. وأدى خطأ العرب في تقدير القوة العسكرية الإسرائيلية إلى ترنحهم في هزيمة نفسية، وفقدان للثقة لم يتمكنوا حتى الآن، وبعد مرور أربعة عقود، أن يتعافوا منها. كما قدمت تلك الخسارة ذخيرة حية لمعارضي النظام، وتطورت الأزمة إلى حرب دائمة بين الأصوليين الإسلاميين الذين يسعون إلى تحويل البلاد إلى جمهوريات إسلامية تطبق قوانين الشريعة تطبيقاً صارماً، وبين دعاة الحداثة من اللادينيين.

إلا أن المشكلة في مصر كانت أكثر حدة من بقية أقطار العالم العربي، ويرجع السبب في ذلك إلى ميراث مصر التاريخي وعظمة ماضيها. لم تكن مصر كبقية دول الشرق الأوسط. فلم تأت مصر إلى الوجود كنتيجة اعتباطية لأهواء القوى المستعمرة. فتاريخها حقيقي، وهو تاريخ قديم وعظيم. إلا أن هذا المجد متأخر كثيراً، وقليل من الناس من يشك بذلك. وعندما يتساءل الناس عن سبب ذلك، فإنهم يجدون الجواب الأسهل غرب صحراء سيناء – إسرائيل، وبالتبعية الولايات المتحدة راعيتها الرئيسية. وقد أدى هذا الاعتقاد السائد إلى تأجيج اندفاع موجة الإسلاميين. وقد عمل جمال عبدالناصر ومن خلال قوة الإرادة والفكر على جعل مصر في ذلك الوقت محور العالم العربي؛ وبسبب فشله العسكري أصبحت بحكم موقعها محور ردة فعل الأصوليين. ولم يسعف موت جمال عبدالناصر وارتقاء السادات إلى سدة الحكم في التخفيف من حدة هذا التوتر. وظهر السادات بمظهر الدمية المسخرة لخدمة المصالح

الغربية. وتحولت أعظم إنجازاته - اتفاقيات كامب ديفيد وما تبعها من معاهدة السلام مع إسرائيل عام 1978 - إلى بنود إدانة ضده من قبل الأصوليين. ورد السادات على ذلك بحملة قمع لا هوادة فيها، فسجن الآلاف، معلناً في الوقت نفسه عن دعمه للقضايا الإسلامية واعتماد الشريعة مصدراً من مصادر التشريع في مصر. وبعد ثلاث سنوات من نجاح السادات في كامب ديفيد، تم اغتياله على يد عناصر إسلامية من جيشه. وكانت المجموعة التي اغتالته على درجة كبيرة من الجرأة والمجاهرة، إذ لم تقم بالعملية سراً أو تحت ستار الليل، بل اختارت أكثر الأماكن المكشوفة أمام الملأ: أثناء استعراض عسكري جماهيري.

خلف حسني مبارك السادات، وواصل انتهاج السياسات المزدوجة تجاه الأصوليين: مغازلتهم أحياناً، والسجن أو أسوأ منه أحياناً أخرى. وتعرض مبارك نفسه لأكثر من ثلاثين محاولة اغتيال طيلة فترة حكمه. وإلى حد بعيد، كان كل من القمع والتطرف سبباً في وجود الآخر وتعزيزه لدرجة يصعب معها التمييز أي منهما وجد أولاً[4]. ومن بين النتائج الواضحة لهذا الصراع ظهور نظام سياسي ديمقراطي في الاسم، واستبدادي متسلط في الواقع العملي. وكان أكثر من نصف الأحزاب السياسية المعترف بها حالياً محظورة من ممارسة نشاطها السياسي في وقت أو آخر. وفرض حظر بات وقطعي على تدخل الجماعات الدينية في الشؤون السياسية. وتعرض أعضاء أقوى وأوسع الجماعات الإسلامية الناشطة - الإخوان المسلمون - للسجن بشكل روتيني بسبب مخالفتهم هذا الحظر. كما أدى انعدام وجود منافذ قانونية للمعارضة السياسية إلى تهميشها ودفعها نحو التطرف. وقد وسعت جماعة الإخوان المسلمين من نشاطاتها وجهودها بهدف تجنيد المزيد من الأعضاء الجدد داخل الجامعات المصرية أثناء الفترة التي كان محمد الأمير يدرس فيها. وينادي الإخوان المسلمون بالعودة إلى المبادئ الإسلامية الأساسية، بما في ذلك التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية، ويحذرون من الفساد القادم من قوى

الحداثة. واستشهد هذا النقد بميل مصر نحو الانحلال المادي للولايات المتحدة. وتزامنت نشاطات الإخوان المسلمين في الجامعات مع تزايد التوجه الديني في مصر عموماً، وكان هذا التوجه جزءاً من الصحوة الإسلامية التي عمت العالم العربي في أعقاب الثورة الإيرانية.

بذلت أسرة محمد الأمير جهوداً مقصودة لتجنب هذا النقاش برمته. وحذر الأب، وهو مسلم ملتزم، أبناءه من الإسلام السياسي. وكان أبعد ما يكون عن مناوءة الغرب، بل بالعكس، كان يحث ابنه على دراسة اللغة الإنجليزية إلى جانب المناهج الدراسية المقررة. وهو ما فعله محمد في جامعة القاهرة. ومن الواضح أن الأب كان يدعم التوجهات اللادينية للحكومة. وكان ينأى بنفسه عن السياسة والمجاهرة بالمعتقدات الدينية، وسعى بدلاً من ذلك إلى تحقيق المركز الاجتماعي والاحترام بين الناس. وعلى العكس من نظرائهم الأمريكان، قل أن تجد محامياً مصرياً ثرياً، ولا يمكن لأي أحد أن يثرى في مصر دون أن يكون له روابط مع زمرة حسني مبارك الحاكمة. وأمضى محمد الأمير (الأب) معظم حياته المهنية في العمل لدى الخطوط الجوية المصرية. واستطاع أن يكسب دخلاً معقولاً وإن لم يكن مذهلاً. وانضم إلى واحد من الأندية الاجتماعية الكثيرة في القاهرة، وكانت هذه النوادي منذ أيام الحكم البريطاني درباً مهماً نحو تحقيق المكانة الاجتماعية في القاهرة. واعتادت النخبة الحاكمة في مصر على تناول طعام الغداء في الشرفات الخضراء لنادي الجزيرة منذ عهد الاستعمار. والشيء الوحيد الذي تغير بعد الاستقلال، بحسب وصف أحد الدبلوماسيين، هو أن الضباط المصريين حلوا محل الجنرالات الإنجليز في خمارة النادي. وكانت عضوية محمد الأمير (الأب) في النادي الذي ينتمي إليه عضوية رمزية. فهو لم يتمكن من الصعود إلى حلقة النخبة في السلم المحلي الذي يحتله نادي الجزيرة، أقدم وأرقى النوادي الاجتماعية في مصر، إلا أنه استطاع الدخول في نادي الرماية، وهو واحد من أفضل نوادي الدرجة الثانية للطبقة الوسطى.

وكان محمد الأمير يحب أن يرى ابنه محمداً وقد حقق نجاحاً يضاهي نجاح ابنتيه. وكان الأب يوصل محمد من وإلى الجامعة بسيارته. ولم يكن هذا الفعل مستهجناً على الإطلاق، فمعظم الشباب المصري يواصل العيش في كنف أسرته، ما لم ينتقل إلى مدينة أخرى للدراسة، ويسكن مع أبويه حتى يتزوج. ولا يزال كثير من الشباب في الثلاثينيات من العمر يتناولون طعام العشاء على مائدة أمهاتهم كل ليلة.

أنهى محمد دراسته الجامعية بمعدل متوسط وبمرتبة أقل من المرتبة التي حصلت عليها الأختان، وهو ما حرمه من متابعة تعليمه العالي في جامعة القاهرة. وقدم له أبوه سيارته التي كان يستخدمها وهي من نوع فيات موديل 1974 كووب، هدية بمناسبة تخرجه، ولكنه شجع ابنه على متابعة دراسته. وكان الأب يقول لابنه دائماً إذا أردت أن تكون ناجحاً، فيجب عليك أن تحصل على لقب "دكتور" ليكون أمام اسمك، كما فعلت أختاك. وألح على محمد أن يبحث عن جامعة مناسبة في الخارج لهذا الهدف. وعمل محمد في وظيفة مؤقته في الإشراف على ورشة إنشاءات لمشروع بنايتين في القاهرة. ونزولاً عند رغبة أبيه، التحق بدورة لتعليم اللغة الألمانية في معهد غويث[5].

يقول محمد الأمير: "إن ابني محمداً شخص حساس، ورقيق ومتعلق بأمه كثيراً. لقد تحايلت عليه لكي يذهب إلى ألمانيا لإكمال دراسته. ولولا ذلك لما فكر في مغادرة مصر". ويضيف الأب "لم يكن محمد يرغب بالسفر إلى الخارج. وبمحض المصادفة، كان لدى صديق لي ضيوف من ألمانيا، وهما مدرسان في مدرسة ثانوية في هامبورغ. فدعوتهما لتناول العشاء، وكان محمد نجم الجلسة لأنه كان يتحدث الألمانية بطلاقة".

وبعد أسبوعين، كان محمد الشاب في هامبورغ، يسأل عن كيفية الوصول إلى أقرب مسجد.